المقدّمة

ظهور الوهّابيّة مبدأ تاريخ نجد الحديث والجزيرة العربية والشرق الادنى

- ١ -

مبدأ تاريخ نجد الحديث

« يبدأ ابن بشر تاريخ نجد الحديث بالسنة التي هاجر فيها الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى الدرعية ، ففيها بدأت نجد .. تكتشف نفسها ، وتعي رسالتها ، وتصنع وحدتها ، وتبني نهضتها .

وقبل ذلك ، وحتى القرن الثاني عشر ، كانت « نجد » تعبيراً تاريخياً أو « جغرافياً » ، في الكتب القديمة ، وأما « في الواقع » ، فما كان شيء يذكّر بوحدتها أو وجودها .. وإنما كانت هناك مجموعة كبيرة من الإمارات والمشيخات ، تنفرد كل واحدة منها بسلطانها ، وتعتز باسمها ولا ترى شيئاً فوقه ، وقد تتحالف

أحياناً لقتال الآخرين واستباحة ديارهم وأموالهم ، ولكنها متى فرغت من قتال عدوها ، عادت تتقاتل فيما بينها ، ولما يجفّ مداد عهدها ، ودم جندها .

كانت كل عشيرة في نجد دولة ، وكل بلدة إمارة أو مشيخة ، بل حدثونا أن بلدة واحدة صغيرة قسمت أرباعاً ، فكان يتولى كل ربع فيها رئيس . [١]

وكانت الحرب ، بين هذه الدويلات الصغيرة العجيبة قائمة موصولة ، كأنها جزء من طبيعتها ، فكانت البلاد تعيش في رعب دائم ، بين عدو يأخذها بالقهر ، وحليف يأخذها بالغدر ، وما كانت تعرف السكينة والأمن والحرية إلا قليلاً ، ففي الحرب يُقتل أبناؤها ، ويدمّر بناؤها ، ويحرق نخيلها ويتلف زرعها ، وفي فترات السلم يُحبس الناس في بلدانهم ، فما يستطيعون الإبتعاد عنها الا بمغامرة ... لأن الطرق مرصودة ... بالجن ... وقطاع الطرق ... وطلاب الغرّة !

هكذا كانت نجد ... تجديداً وتجسيداً لقصة ملوك الطوائف ، الذين قال فيهم المؤرخ الكبير « الطبري » :

« كل منهم كان ملكه قليلاً ، إنما هي قصور وأبيات ، وحولها خندق ، وعدوّه قريب منه ، له من الأرض مثل ذلك ونحوه ، يغير أحدهم على صاحبه ، ثم يرجع كالخطفة » [٢]

وقال صاحب « لمع الشهاب » يصف نجداً في تلك الأيام :

« ليس هناك رئيس قاهر يردع الظالم وينصر المظلوم ، بل كل من الحكام حاكم بلده .. والبداة إذ ذاك قبائل شتى ... وحكومة كل شيخ في قبيلته برضاها ، وكل من تقدم كرماً وشجاعة رضوا به كبيراً لهم ، وفيهم مشايخ صغار

---

١ - قال ابن بشر : « قتل صاحب التويم ... فقسموا البلد أرباعاً ، كل واحد شاخ في ربع فسموا المربوعة ... وانما ذكرت هذه الحكاية ليعرف من وقف عليها وعلى غيرها نعمة الاسلام والجماعة ، فان هذه القرية ضعيفة الرجال والمال ، وصار فيها أربعة رؤساء ... »

٢ - يطلق اسم ملوك الطوائف ايضاً على رؤساء الدويلات الاندلسية ، الذين أضاعوا بلادهم ، لتفرقهم وتخاذلهم وتحاسدهم ، وكانوا مع حقارة شأنهم على جانب كبير من الغرور ، حتى قال شاعرهم :

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الاسد .

في نفس القبيلة الواحدة يخالفون رأي المشايخ الكبار ، وكان البدو يتحاكمون في قضاياهم الى العرف ، لا الى الشرع ، وقد يأخذ العرف منهم الرشوة ، وهي ... ما يعطى لإبطال الحق ...

والحكام طاغون ، يصدّون الناس عن أحكام الشرع ... وكان أهل المدن، من أهل نجد ، دائماً يحارب بعضهم بعضاً ... ».

قالت لادي بلنت :

« لم تكن الجزيرة العربية خاضعة للسلطنة العثمانية المركزية ، وكانت كل بلدة تبدو مستقلة بذاتها .

وكانت الديانة – الا في شكلها البدوي البدائي – قد زالت من الجزيرة.

وكان عنصر البداوة هو المسيطر ، فكانت كل مدينة ، بل كل قرية في جزيرة العرب ، تعدّ ملكاً أو اقطاعاً لأحد شيوخ العشائر ، الذي يقيم على حدودها وتدفع اليه (الإخاوة) – أي الضريبة – لقاء ما يدعيه من حماية لها ! ...

وقد يتخذ الشيخ لنفسه قصراً ضمن أسوار البلدة – وإن بقيت خيامه وخيام عشيرته منثورة في البادية – ويجعله داراً للضيافة ، ثم يفرض نفسه حاكماً على سكان البلدة ، يمارس السلطة، ويقيم العدل، ويؤلف من الفتيان حرساً، ويجبي الضرائب.. فيخاطبه الناس ، لا باسم الشيخ ، ولكن باسم : « الأمير » . »

خلاصة القول : إن حالة نجد ، في تلك الأيام ، كانت شبيهة ، من الناحية السياسية ، بحالة ملوك الطوائف ، وأما من الناحية الدينية ، فكانت تشبه حال الجاهلية ، إلا من عصم ربك ، ولم يكن الرحالة « بلغريف » مسرفاً حين وصف الدين ، في الديار النجدية قديماً ، بأنه « ذكرى بعيدة غامضة ، محتها الأيام ! ... ذلك أن عبادة الجن ، في ظل شجرة ، أو في أعماق كهف ، وتقديس الموتى ، والنذر للقبور ، كل أولئك كان يختلط عند أهل نجد بعادات «للصابئة» قديمة أحيوها ، بينما أهملوا القرآن ، وما عادوا يعرفون في أية جهة تقع القبلة ، وتناسوا الزكاة والصيام والحج ...

تلك كانت « ديانة » نجد ، لما وصل اليها المصلح محمد بن عبد الوهاب ، ليبعث فيها أجمل أيام الإسلام »[1]

نجد بعد الدعوة

كانت نجد ، في تفرق كلمتها وضعف عقيدتها ، تحتاج الى زعيم ملهم ، يعلمها الدين ويحملها على اتباعه ، ويطوي أعلام التفرقة ، وينشر راية الوحدة ، ليجمع الناس في ظلها .

وقد حقق الله ذلك لنجد ، فجعل هدايتها إلى الإمام محمد بن عبد الوهاب ، وقيادتها الى الأمير محمد بن سعود ، وكانا كالرجل الواحد ، أو الروح الواحدة في جسدين ، ما اختلفا قط .

ففي عام ١١٥٧ هـ . ، جاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى الدرعية ، وما كاد ينزل في دار من أوائل دورها ، حتى سار اليه أميرها محمد بن سعود بنفسه ، وبدأه الزيارة ، وبالغ في تكريمه، ووعده الحماية والنصرة ، وتعاهدا على ميثاق ، ان يكن غير مكتوب ، فقد وعته الضمائر والقلوب ، وهو التناصر بصدق وقوة في الدعوة الى اخلاص العبادة لله وحده ، ومكافحة الشرك والبدع ، واقامة حكم الشرع .

قال أرمسترونغ :

« كان ابن سعود ، أمير الدرعية ، طموحاً ، وعرف منزلة ابن عبد الوهاب وقدره ، فاتفق معه ، واستطاعا حمل العرب على الدخول في الدين ، ببركة الدعوة وقوة السيف .

وكان نجاحها سريعاً .

كان ابن سعود زعيماً وقائداً ،

---

١ - انظر كتاب ندره مطران : « سورية الغد »

1) Nadra Moutran - La Syrie de demain

وكان ابن عبد الوهاب هادياً وداعياً الى الله ، تسيطر كلماته على خيال العرب.
وبفضل تعاونهما : حُطِّمت الأوثان ، وهُدّمت الأبنية المقامة على أضرحة الأولياء، ونُفذت أوامر القرآن ، وأكره الناس على الصلاة خمس مرات في اليوم، وعلى صوم رمضان، ومُنِع شرب الخمرة والدخان ، وخضعت القبائل، واحدة بعد الأخرى ، لدولة التوحيد » .

وقال « كونراد ملتبورن » :

« أظهر محمد بن عبد الوهاب دعوته ، فتبعه ابن سعود ، وتقوى كل واحد منهما بالآخر، قوّى ابن عبد الوهاب دعوته بسيف محمد ، وقوّى ابن سعود إمارته بدعوة ابن عبد الوهاب ، فكان الأول هو الزعيم الديني ، وكان الثاني الحاكم والزعيم السياسي ، ثم استمر ذلك بعدهما ، فصارت ذرية كل منهما تتولى عمل أسلافها » .

تحوّلت الدرعية بعد هجرة الشيخ من بلدة ضعيفة فقيرة ، الى مدينة كبيرة غنية ، صارت قاعدة دولة عظيمة ، بسطت سلطانها ، في عهد محمد بن سعود ، على أكثر بلدان العارض ، وبعض بلاد نجد ، ثم ضمت اليها ، في زمن عبد العزيز وابنه سعود ، بلاد نجد كلها ، والأحساء ، وجبل شمر ، وأجزاء من اليمن وعسير وبلاد الحجاز وامتد نفوذها الى الخليج .

قالت لادي بلنت ، تصف الدولة السعودية : « انها أول دولة عربية ، تنشأ بعد عصر الرسول ، وتوحد تحت رايتها جزيرة العرب على أساس من الشرع والتنظيم الاداري المحكم » .

لذلك كان ابن بشر على حق ، حين بدأ كتابه في تاريخ نجد ، بالسنة التي هاجر فيها الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى الدرعية، وقد استنتج بعض المؤرخين من ذلك أنه يشبه هجرة الشيخ بهجرة النبي (ص). إلى المدينة المنورة، وليس كل الناس يستحسن هذا التشبيه ...

والحق إن أبعاد الهجرتين مختلفة ، فليس شيء يماثل هجرة النبي (ص) . ولكن التشابه لا يعني التطابق والتساوي، وحسبنا من أوجه الشبه أن دعوة الشيخ كانت، قبل هجرته الى الدرعية ، دعوة خافتة مضطهدة ، ولكنها أصبحت بعد هجرته دعوة

قوية ، لها رايتها ، ولها جيشها ، ولها دولتها ، ولها منعتها ... فلا يستطيع أمير أو سلطان أن ينفي الشيخ من بلده ، أو يسجنه ، أو يحمله على الصمت ، فالأمر في الدرعية للشيخ نفسه ، ودعوته هي دستور الدولة ومادة حياتها !

لم تكن في نجد دولة لها قوتها التي يرهبها أعداؤها ، ولها مثلها العليا التي يلتف حولها أبناؤها ، ويقدمون بين يديها التضحيات ويصنعون أحداث التاريخ ، فلما تأسست دولة الإسلام في الدرعية ، أخذت الصفوف تتجمع ، والبلدان تتوحد ، فنشأت وحدة في العارض ، ثم وحدة في نجد ، ثم توسع مدلول نجد نفسه ، فنشأت دولة نجد الكبرى – إن صح هذا التعبير !

- ٢ -

مبدأ تاريخ الجزيرة العربية .

لم تكتف الدولة السعودية بتحرير نجد وحدها ، وانما تجاوزت ذلك كثيراً ، وكانت لحركتها الاصلاحية ، وحروبها الظافرة، وتحديها لدولة السلاطين العثمانيين، آثار باهرة في سائر البلاد العربيـــة والاسلامية ، فليس من الانصاف أن نعتبر ظهورها فاتحة تاريخ نجد وحده .

في عام ١١٥٧ هـ . كان محمد بن سعود أميراً على بلدة واحدة : الدرعية .

ولما توفي ابنه عبد العزيز – أي بعد ستين سنة – كان ملكه أكبر من الدرعية ألف مرة .. وأكبر من العارض .. وأكبر من نجد ..

وفي عهد سعود الكبير، توسعت دولة نجد توسعاً جديداً ، فضمت اليها الحرمين (مكة والمدينة) وسائر الحجاز ، وجبت الزكاة من بوادي العراق والشام .

وكان آل سعود في طريقهم الى تحقيق حلم .. دولة عربية واحدة ، من البحر المتوسط الى الخليـج ، ولكن الترك حسدوهم وخافوهم، فاستعدوا أنصارهم عليهم ، وحاربوهم واستطاعوا تدمير عاصمتهم الدرعية ، وقتلوا أميرهم عبد الله بن سعود .

قال طـه حسين : « .. لولا أن الترك والمصريين اجتمعوا على حرب هــذا المذهب ، وحاربوه في داره بأسلحة لا عهد لأهل البادية بها ، لكان من المرجو أن يوحد هذا المذهب كلمة العرب في القرن الثاني عشر والثالث عشر للهجرة ، كما وحد ظهور الاسلام كلمتهم في القرن الأول » .

ظن الأعداء ، بعد انهيار الدولة السعودية الأولى ، أن حركة احياء الدين والعروبة التي بدأت في الدرعية قد انطفأت شعلتها وهمدت جذوتها ، ولكن الله سبحانه أبى الا ان يتمّ نوره ، فعادت الدولة السعودية سيرتها الأولى ، وصمدت للدسائس والمكائد والحروب الحاقدة ، وانتصرت في النهاية نصراً مؤزراً .

وتقديراً للآثار التي ترتبت على نهوض الدولة السعودية من كبوتها ، بهذه السرعة الخارقة ، وللانتصارات التي حققتها والأفكار التي نشرتها ، ذهب غير واحد من المؤرخين الى أن ظهور الوهابية لا يُعَدّ مبدأ تاريخ نجد فحسب ، ولكنه .. مبدأ تاريخ الجزيرة العربية الحديث .

قالت صحيفة « الخليج الفارسي » :

« ان تاريخ الجزيرة العربية الحديث ، وليس تاريخ نجد وحدها ، يبدأ بظهور الوهابية ، لأنها غيرت مجرى الحوادث في الجزيرة تغييراً أساسياً .

كانت الوهابية في أول أمرها حركة دينية خالصة ، غايتها اصلاح عادات المسلمين والرجوع بهم الى بساطة الاسلام الأول وصفائه ، وكانت رد فعل ضد البدع والخرافات والترف في المعيشة ، ومتى عرضت الوهابية على مقياس القرآن والحديث الصحيح وجدت مطابقة للأصول المجمع عليها .

ان اعتناق عدد محدود من سكان الجزيرة العربية للوهابية ، دون غيرهم من المسلمين ، أراق على الحركة الوهابية في نجد صبغة سياسية وقومية ، وجعل لها خطورة عسكرية . وقد مهدت وحدة العقيدة طريق الخضوع الى سلطة ادارية مشتركة ، فأطاع الأفراد القانون ، وتوحدت البلدان والقرى – التي كانت من قبل في قتال دائم – تحت سلطان امارة واحدة قوية ، حسنة التنظيم ، وبعد أن تحققت هذه الوحدة الداخلية ، نشطت الدعوة الى نشر مبادئها في الخارج ، ولم يكن ذلك غريباً عن الرغبة التي استيقظت في النفوس للتخلص من الحكام الحجازيين واليمانيين .

ويمكن القول ان الخلافات الدامية التي وقعت بين الوهابيين وبين جيرانهم ، كانت ناشئة عن أخطاء ارتكبها كلا الفريقين ، فقد كان الوهابيون يعتبرون

مناظريهم – من الترك خاصة – مخالفين في سلوكهم للاسلام ، بينما كان الترك ، مع اعترافهم أحياناً بصحة العقيدة الوهابية ، يكرهون تشددها وميل أتباعها إلى تكفير الآخرين ، وبالنهاية ... أخذ كل فريق يزعم إن الآخر خرج عن دائرة الإسلام ...

والحق ان معارضة الناس للوهابية ، كان يغذيها أشخاص كشريف مكة تأثرت مصالحهم المادية بابطال الوهابية لتقديس القبور وزيارة المقامات والمشاهد ، ونحو ذلك ، يضاف الى هذا تشدد الوهابيين في أمور طفيفة جعلوها ذات بال ، كتحريم الدخان والحرير والذهب ، والسبحة » .

ويقول الدكتور فيليب حتي ، في كتابه « تاريخ العرب » :

« لا يبدأ تاريخ الجزيرة العربية الحديث ، حتى ظهور الموحدين في منتصف القرن الثامن عشر ، وكانت حركتهم حركة احياء للدين وتمسك شديد بنصوصه ، بدأها محمد بن عبد الوهاب . فبعد أن طاف في الحجاز والعراق وسورية ، عاد إلى وطنه ، وقد تأثر بفكرة . وهي أن الإسلام ، كما يمارسه معاصروه ، قد انحرف كثيراً ، علمياً ونظرياً ، عن طريق السنة التي استنها القرآن والنبي ، وقرر أن ينقيه هو بنفسه ، ويعيده إلى حالته البدائية زمن السلف الصالح ، وقد استمد إلهامه من ابن حنبل ، كما شرحه ابن تيمية .

وجد هذا المصلح الجديد الملهم في محمد بن سعود خير نصير ، وكان هذا زعيماً من زعماء أواسط الجزيرة وأصبح صهراً لابن عبد الوهاب . وهذه حادثة أخرى يقترن فيها الدين والسلطة ، وقد نتج عنها انتشار سريع لحركة الموحدين ونفوذ ابن سعود في كل وسط الجزيرة العربية وشرقيها .

وكان خصوم الحركة يدعون أتباعها : (وهابيين) ، فلصق بهم هذا الاسم .

وفي غيرة هؤلاء واندفاعهم لتنقية الاسلام من عقيدة تكريم الأولياء وغيرها من البدع ، اجتاحوا كربلاء عام ١٨٠١ ، وفتحوا مكة عام ١٨٠٣ ، والمدينة عام ١٨٠٤ ، وهدموا القبور وكل ما يشتمّ منه رائحة الوثنية ، وفي السنة التالية

هاجموا سورية والعراق ووسعوا ملكهم من تدمر حتى عمان ، فكان أكبر ملك في الجزيرة ، منذ أيام النبي ، وقد فسر نجاحهم بأنه اشارة من الله سبحانه وتعالى الى انه غير راض عن الترك » .

- ٣ -

مبدأ تاريخ الشرق الأدنى

كتبت دائرة المعارف الاسلامية ـ النسخة الانكليزية ـ الطبعة الجديدة ـ فصلاً عن الوهابية[١]، تجاوزت فيه قول حتي وصحيفة الخليج الفارسي، اذ اعتبرت الحركة الوهابية بداءة تاريخ الشرق الأدنى كله، في الزمن الحاضر.

قالت الأنسكلوبيديا المذكورة:

«ان دعوة ابن عبد الوهاب الذي جعل وحدانية الله فوق كل شيء، وجرّد الديانة من البدع، قد تجاوبت أصداؤها في كل العالم الاسلامي، من افريقية الغربية الى الهند الشرقية، وهزّت أفكار السلفيين الجدد، وكان لها ـ كحركة عربية مناهضة للسلطنة العثمانية البعيدة الفاسدة ـ أثر كبير في الحركات القومية التي نشأت عند العرب، في القرنين التاسع عشر والعشرين.

أما في الجزيرة نفسها فقد تمّ، بفضل الوهابية، تحقيق وحدة سياسية، حلت محل الاقليمية الضيقة، ونشأت فيها حكومة نظامية تؤدي رسالتها في صورة حسنة لم تعرف الا قليلاً في الماضي».

---

(١) التعبير بالوهابية أو (الحركة الوهابية) عندما ننقلها من المصادر فإنما ننقل مصطلحاً لتقريب المعنى من باب خطأ شائع أفضل من صواب لا يدرك، وإلا فليست الوهابية مذهباً ولا طريقة وإنما دعوة لتصحيح الممارسات الدينية.

مؤسس الدولة السعودية الأولى

من هو مؤسس الدولة السعودية ؟

يتفق أكثر المؤرخين على أن مؤسس الدولة السعودية الأولى في نجد هو :

محمد بن سعود

ويشركون معه في شرف التأسيس : الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

وهناك من يزعم ان مؤسس الملك السعودي ، هو :

سعود بن محمد بن مقرن

وآخرون يقولون انه :

عبد العزيز بن محمد

فالمؤلفون – كما ترى – موزعون بين محمد ، وأبيه ، وابنه .. وها نحن نرد على أصحاب الرأيين الأخيرين .

سعود بن محمد :

يقول فؤاد حمزة ، في كتابه « قلب جزيرة العرب » ، ان سعود الأول .. هو « مؤسس الحكم السعودي « وانه » كان مقيماً في الدرعية وتمكن بدهائه وحنكته من تثبيت امارته في الدرعية وما جاورها من الواحات الصغيرة ، ووضع بعمله هذا أساس مملكة آل سعود » .

وفي اعتقادنا أن سعود بن محمد لا يستحق لقب « مؤسس » ، لأنه لا يختلف في شيء عن رؤساء الدرعية الذين سبقوه.

والقول بأن سعود هو مؤسس السعودية ، كالقول بأن عبد الوهاب هو مؤسس الوهابية ، ومنشأ ذلك خطأ في فهم النسبة .. والصواب هو ان السعوديين منسوبون الى « ابن سعود » لا الى سعود ، والوهابيين منسوبون الى « ابن عبد الوهاب » ، لا الى عبد الوهاب .

ان تاريخ الدولة السعودية ، بل تاريخ نجد الحديث ، إنما يبدأ بهجرة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب الى الدرعية ومبايعة محمد بن سعود له على اخلاص العبادة لله وحده واتباع حكم الاسلام الصحيح في سياسة البلاد ، و « سعود » مات قبل ذلك، في فترة يشبهونها بالجاهلية ، فكيف تنسب دولة الدعوة .. الى رجل لم يعرف الدعوة ولا صاحبها ؟

عبد العزيز بن محمد :

القائلون بأن مؤسس الملك السعودي هو عبد العزيز بن محمد بن سعود ، يحتجون لرأيهم بأن الفتوحات العظيمة جرت في عهده ، فبلغت الدولة من سعة الرقعة وكثرة الموارد وقوة الجيش وعظم الهيبة واستقرار الحكم وشيوع الأمن مبلغاً كبيراً ، فخرجت من دائرة « المشيخات » الضيقة الى بحبوحة الدولة ...

جاء في كتاب « عرض البريمي » ، الذي قدّمه الزعيم العربي عبد الرحمن باشا عزام ، باسم الحكومة العربية السعودية ، الى لجنة التحكيم الدولية ، ما يأتي :

« ... مات محمد بن سعود ، أول حاكم من آل سعود نشط لنشر الدعوة الى التوحيد في سنة ١١٧٩هـ ، في وقت كان فيه نفوذ الحركة ينتشر تدريجاً، واقتصرت فتوحاته على بعض المناطق في نجد ، وأصبح ابنه عبد العزيز ، الإمام الجديد في الدرعية: مؤسس الدولة السعودية الأولى ، التي دان لها بالطاعة والولاء القسم الأكبر من جزيرة العرب » .

وهذا كلام صحيح ... من حيث اتساع الدولة في زمن عبد العزيز ، ولكننا نرى أن كل دولة تكون في أول أمرها ضعيفة ، محدودة الموارد ، بل هذا شأن كل دولة ناجحة ، تبدأ صغيرة ثم تكبر ، بفعل الزمن و « زخم » الخيرة الأولى ، وما كان التأسيس ، على أي حال ، ليعني الفراغ من البناء والتزيين ، وإنما هو وضع الأساس ، والأساس : رسالة مقدسة ، وإيمان بها ، وجهادٌ في سبيلها .

وذلك ما توافر لمحمد بن سعود ، فكان هو المؤسس ، وكان ابنه عبد العزيز ثم حفيده سعود مكملين لرسالته ، ولكل نصيبه من الفخر .

ومتى ذكرنا اسم ابن سعود ، وجب علينا أن نذكر أيضاً اسم إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، الذي وضع معه أسس الدولة ، فكان شريكه في التأسيس ، وان لم يشاركه في الملك ، وقد عاش بعده ، وشهد كثيراً من الفتوحات التي تمت في عهد عبد العزيز !